فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر فى قوله ويفكر فى كلامه ويفتش فى اقتراحه .

والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعَمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] .

فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها ؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسى آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على أية حال جريمة .

ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وأصل القصة وترتيبها الطبيعى أنه سبحانه يقول : خلقْتُ آدم بيدى وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرْتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا ....

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجة منقطع .

وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق ، يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب فى قصصهم ، فيعطوننا فى بداية القصة لقطة لنهايتها ؛ لإثارة الرغبة فى تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لونٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .

ومن ذلك أسلوب القرآن فى قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجَزة فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) ﴾ [الكهف]

ثم أخذ فى عَرْضها تفصيلاً : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. (١٣) ﴾ [الكهف]

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً فى قَصَص القرآن ، ففى قصة لوط ـ عليه السلام ـ يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[2] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ[3] (٣٤) ﴾ [القمر]

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر]

---

(١) الرقيم . قيل : هو كتاب كان معهم . وقيل : اسم وادٍ بفلسطين كان فيه كهفهم . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

(٢) أى : عذاباً يحصبهم أى : يرميهم بحجارة من سجيل . ويُقال للريح التى تحمل التراب والحصى : حاصب . [لسان العرب ـ مادة : حصب] .

(٣) السَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح . والجمع : أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [لسان العرب ـ مادة : سحر] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى في قصة موسى وفرعون :
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾ [الأعراف] أى : من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملئه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، هذا مُجمل القصة ، ثم يأخذ فى قصِّ الأحداث بالتفصيل : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾ [الأعراف]

وهكذا أسلوب القرآن فى قصة آدم عليه السلام ، يعطينا مُجْمل القصة ، ثم يُفصِّلها : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا (١١٦) ﴾ [طه] يعنى : اذكر إذ قُلْنا للملائكة ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة]

وقبل أن نخوضَ فى قصة أبينا آدم - عليه السلام - يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً فى القرآن ، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة ، ولا يعنى إعادة الأحداث ، بل هى لقطاتٌ لجوانب مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع فى النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها .

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبى ﷺ ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد ، سيحتاج فى كل منها إلى تثبيت ، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة ، كما فى قصة يوسف عليه السلام مثلاً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. (١١٦) ﴾ [طه] البعض يعترض يقول : كيف تسجد الملائكة لبشر ؟ نعم ، هم سجدوا لآدم ، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم ، بل بأمر الله لهم ، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم ، بقدر ما هى إطاعة لأمر الله . ولقائل هذا الكلام : أأنت ملكىٌّ أكثر من الملك ؟ يعنى : أأنت ربانىّ أكثر من الربّ ؟

وما معنى السجود ؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا.. (١٠٠)﴾ [يوسف] أى : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم - عليه السلام - هو خليفة الله في الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات كثيرة منها المحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ، وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفيّ كالملائكة التى تدير خفى هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلّفون بالريح وبالمطر .. إلخ من الأمور التى تخدم الخَلْق . فلا بُدَّ - إذن - أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتى .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظَلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض . نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق آدم للجنة التى هى دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له فى الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروى فهى تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء فى قول الحق سبحانه :

(١) قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أبوه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديماً . وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٩١) بعد سرد هذه الأقوال : « ظاهر القرآن يدل على حياتها ، وهذا الذى نصره هو المنصور الذى يدل عليه السياق » .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا(١) مُصْبِحِينَ ۝١٧﴾ [القلم]

وقوله : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ.. ۝٣٢﴾ [الكهف]

إذن : تُطلَق الجنة على شيء في الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسمَّوْها الجنة ؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفى الإنسان ولا تُحوجه إلى شيء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة ؛ لأنه لم يكُنْ في جنة الخُلْد ، إنما في مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه في هذا المكان درساً ، ويُدرِّبه على القيام بمهمته في الحياة وخلافته في الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب في شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية .. الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله في الأرض ، فأدخله الله في هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهي ، وحذَّره من عدوه الذي سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه في الإضلال والإغواء .

---

(١) الصَّرْم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . أي : يقطعون ثمارها . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم] أي : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التي قطعت أشجارها ولا نبات فيها » . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

وهذه هى خلاصة منهج الله فى الأرض ، وما من رسول إلا وجاء بمثل هذا المنهج : أمر ، ونهى ، وتكليف ، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرجنا عن أمر الله ونَهْيه .

وبعد هذا (الكورس) التدريبى فى الجنة علّم آدم بالتطبيق العملى أن الشيطان عدوه ، وأنه سيُغريه ويخدعه ، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته فى الأرض ، فيكون من عدوه على ذِكْر وحذر .

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم : كيف يعصى الله وهو نبى ؟ ويذكرون قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

نقول : ما دام أن آدم ـ عليه السلام ـ هو خليفة الله فى أرضه ، ومنه أنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة ، ومن نَسْله الأنبياء وغير الأنبياء ، من نسله الرسل والمرسل إليهم . إذن : فهو بذاته يمثل الخَلْق الآتى كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين .

كما أن آدم ـ عليه السلام ـ مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ ، ومَرَّ بها بعد أن نُبئ ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرَيْن : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادى غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأىِّ إنسان من أناس الأرض .

ينبغى - إذن - أن نفهم أن آدم خُلق للأرض وعمارتها ، وقد هيَّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدَّها بكُلِّ مقوِّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله فى هذه المقوِّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن فى الكون مُلكاً وملكوتاً : المُلْك هو الظاهر الذى نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفى عنَّا وراء هذا المُلْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدى مهمتها فى حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التى تتدخل فى أمور كثيرة فى حياتنا ، كانت فى حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول واكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكَّلون ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

ومنهم الكَتَبة : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه فى الأرض أمرهم بالسجود له ؛ لأنهم سيكونون فى خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذى سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) ﴾ [طه] وفى آية أخرى[1] : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ .. (٧٤) ﴾ [ص]

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

---

(١) وفى آية ثالثة جمع بين الإباء والاستكبار فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة] .

أى : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين . أى : الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان لملائكة خاصة هم الموكّلون بخدمة آدم ، أمّا العالون فهم الملائكة المهيّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التى أثارتْ جَدَلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقين قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] وقوله فى موضع آخر : ﴿مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الاعراف] فأىُّ التعبيريْن بليغ ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور فى فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود الملكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتى مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الاعراف] يعنى : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التى أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود ؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟ وإذا لم يكُنْ ملَكاً فماذا أدخله فى الأمر ؟

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقليْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين فى كثير من الأمور ، ومقهورين فى بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى فى خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً فى أمور التكليف وفى استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصى ، فليس فى اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس فى اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق - تبارك وتعالى - لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل ، هذا فى أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيارَ لك فيها هى القدريات .

لذلك نقول للذين ألِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله فى التكليفات : لماذا لا تتَمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد ألِفْتم المخالفة ؟ إذن : أنت مقهور وعَبْد رَغماً عنك .

لذلك ، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه ، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله ، فمنزلته عند الله كبيرة ، وهو أفضل من الملَك ، لأن الملَك يطيع وهو مرغم . ومن هنا يأتى الفرْق بين عباد وعبيد ، فالكل فى القهر عبيد ، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم .

ومن هنا نقول : إن إبليس من الجن ، وليس من الملائكة ؛ لأنه أمِر فامتنع فعُوقب ، وإنْ كان الأمر فى الأصل للملائكة .

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ۝ ﴾ [الكهف] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا شمله الأمر بالسجود ، وهو ليس ملَكاً ؟

نقول : لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً ، وقد شهد عملية خَلْق آدم ، وكان يُدْعَى « طاووس الملائكة » لأنه ألزم نفسه فى الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة ، وصار يزهو عليهم ويجلس فى مجلسهم ، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين :

(١) قال الحسن البصرى : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . نقله ابن كثير فى تفسيره (٧٧/١) : « هذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء » .

الأولى : إنْ كان أعلى منهم منزلةً وهو طاووسهم الذى ألزم نفسه الطاعة رغم اختياره فهو أوْلَى بطاعة الأمر منهم ، ولماذا يعصى هذا الأمر بالذات ؟

الأخرى : إنْ كان أقلّ منهم ، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى ، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية ، وبينهم وكلاء ومديرون ، فطبيعىٌّ أنْ يشملهم الأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِزَوْجِكَ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] كلمةُ الزوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، الزوج فرد واحد معه مثله ، فليس صحيحاً أن نقول : توأم إنما توأمان ، فكل منهما توأم للآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ملْحَظ آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده ، ثم يقول ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : فتشقيَا . لماذا ؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمَّا المرأة فهى السكن المريح المنشِّط لصاحب الحركة ، على خلاف ما نرى فى مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة فى تبعات الحياة .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾

فقد أعددتُ لك الجنة ، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه ، وأبحتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد[1] منها ، ولك علينا ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨)﴾ [طه] فلن تجوع فيها ؛ لأن فيها كل الثمرات ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة]

ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفَّل لهما بشيء ظاهر يُلبِّى غريزة ظاهرة هى اللباس والتستُّر ، وغريزة باطنة هى غريزة الطعام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾

(تظمأ) يعنى : تعطش ، و (تضحى) : أى : لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة ، فتكفَّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هى العطش ، وغريزة ظاهرة هى ألاَّ تلفحك حرارة الشمس .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء

(١) وهى الشجرة التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة] ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٧٩/١) . ستة أقوال عن هذه الشجرة ، فقال :

- هى الكرم . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى والشعبى .
- هى الحنطة . زعمته يهود .
- هى السنبلة . قاله ابن عباس .
- هى البر . قاله ابن عباس أيضاً .
- هى النخلة . قاله أبو مالك .
- هى التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .

بالشيء ، وهى كلمة (الوَسْوَسة) وهى فى الأصل صوت الحليّ - أى : الذهب الذى تتحلَّى به النساء ، كما نقول : نقيق الضفادع ، وصهيل الخيل ، وخُوار البقر ، ونهيق الحمير ، وثغاء الشاة ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر .

وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذى يجذب الأسماع ، ويُغرى بالتطلع إليه ، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين .

فما الذى وَسوس به إلى آدم ؟

﴿ قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

ونعجب لإبليس : ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والملْك الذى لا يبلى ، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة ؟

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ(١) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾

أى : بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءآتهما ، والسَّوْأة هى العورة أى : المكان الذى يستحى الإنسان أن ينكشف منه ، والمراد القُبُل والدُّبُر فى الرجل والمرأة . ولكل من القُبل والدُّبر مهمة ، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات ، الماء من ناحية الكُلى والحالب والمثانة عن طريق القُبل ، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأيْض ، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر .

لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من

(١) أى : يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت [القاموس القويم ١/١٩٥] .

شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التى نهاهما عنها ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (١٢١) ﴾ [طه] فقبْل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه ؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطى القدرة والحياة دون أن يخلف فى الجسم أىَّ فضلات .

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التى نعرفها ، فكانت المرة الأولى التى يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذى يخرج منها ؟

وهنا مسألة رمزية ينبغى الالتفات إليها ، فحين ترى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان ؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (١٢١) ﴾ [طه]

أى : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذى جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً ؟

قالوا : لأن فَتْحتىْ القُبُل والدُّبُر يخرج منهما شىء قذر كريه يحرص المرء على سَتْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضَّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمَّا الحيوان فيأكل بغريزته ،

ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد فى مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات فى الإنسان قذرة مُنفّرة ، ولا فائدة منها فى شىء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم .. إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] أى : فيما قبل النبوة ، وفى مرحلة التدريب ، والإنسان فى هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطئ ، فإنْ أخطأ فى هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ فى فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما فى الامتحان فيحاسبه .

ومعنى ﴿ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] يعنى : لم يُصبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه فى الصحراء غاوٍ أى : تائه . ثم تأتى المرحلة الأخرى : مرحلة العِصْمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادى الذى يطيع ويعصى ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادى وليس وهو نبى كما يقول البعض .

فقوله : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و (ثُمَّ) تعنى الترتيب مع التراخى ﴿اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] اصطفاه ربه .

ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] لأن الرب المتولى للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب فى الجنة .

﴿وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] المراد بالهداية قوله :

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾

أى : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوى حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه - عز وجل - يعطى آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة فى ظل التكاليف ؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهى ، والشيطان هو الذى يفسد علينا هذه التكاليف .

ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمَّارة التى تُحرِّكك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلِّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى ، مَنْ أغواه ؟ ومَنْ وسوس له ؟

وقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] إشارة إلى الأصل ، وقوله في موضع آخر : ﴿ اهْبِطُوا .. (٣٨) ﴾ [البقرة] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .

وقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٣٦) ﴾ [البقرة] أى : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير فى القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً . فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن ؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع فى الجميع .

كما فى قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فمَن المرفوع ؟ ومَنْ المرفوع عليه ؟ أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنىَّ مرفوع على الفقير .

والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة ؛ لذلك لا تتجمع المواهب فى شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق ـ عز وجل ـ المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر فى شىء ، وذاك ماهر فى شىء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض فى الوجود مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّباً فى حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ فى شىء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أي : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون الحَكَم ؟ الحَكَم بينهما منهج الله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم ؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإن اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدَّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق - عز وجل - لا يضع لخَلْقه قانونهم وهَدْيَهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، كما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لي التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) !!

إذن : الفساد في الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدي على قانونه وتشريعه ، ونرتضي بهَدْي غير هَدْيه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه] فإنْ كانت هذه نتيجة مَن اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه ؟

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] الضنْك هو الضيق الشديد الذي تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتي مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لي ربٌّ يرزقني ويُفرِّج كَرْبي ، كما يقول عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت رَبٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً في وجودُ أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدري بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شيء ، فما بالُكَ بمَنْ له رَبٌّ ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب في البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه في إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذي يُعوِّضه عن كل شيء .

والحق - تبارك وتعالى - أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيماني في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حينما حُوصِر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم ، وأيقن القوم أنهم مُدْركون ، ماذا قال نبي الله موسى ؟

قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] هكذا بملء فيه يقولها قَوْلةَ الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات ، لكنه الإيمان الذى تطمئن به القلوب ، والرصيد الذى يثِقُ فيه كُلُّ مؤمن .

إذن : مَنْ آمن بالله واتبع هُدَاه فلن يكون أبداً فى ضَنْك أو شدَّة ، فإنْ نزلت به شدَّة فلن تُخرج عَزْمه عن الرضى ، واللجوء إلى ربه .

ومن آيات الإعجاز القرآنى فى مسألة الضيق ، قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

فمن أين عرف محمد ﷺ أن مَنْ يصعَّد فى السماء يضيق صدره ؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء فى هذا الوقت وجَرَّب هذه المسألة ؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التى هى آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره ، ألاَ ترى أنك لو صعدتَ سُلَّماً مرتفعاً تنهج[1] ، معنى ذلك أن الرئة وهى خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافى الذى يتناسب والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوِّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفّس فى طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسوجين وغيرها من آلات التنفس .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) ﴾

وكلمة ﴿ أَعْمَىٰ .. (١٢٥) ﴾ [طه] جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

(١) النهج والنهيج : تواتر النفَس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدركَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرِض عن الآيات الذى لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك فى الآخرة يقول تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] فساعةَ يُبعَث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذى كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ فى وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدى إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادى على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويُدله ، فإنْ كان أصمَّ لا يسمع ؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين فى هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ.. ﴿١٢٥﴾﴾ [طه] وفى موضع آخر يقول : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف] فنفى عنهم الرؤية فى آية ، وأثبتها لهم فى آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحِّكين أن الإنسانَ بعد البعث يمرُّ بمراحل عدَّة : فساعةَ يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طَريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذى حاَق بهم كِفَاءٌ لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى

والصم والبكم فى الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أى : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهى الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التى تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التى تؤيد الرسل ، وتثبت صدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفت إلى قدرة الخالق - عز وجل - وحكمته ، فالرسول هو الذى يدلُّ النّاس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التى يبحث عنها العقل .

أيها المؤمن هذه القوة هى الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فلَك من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا . ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التى تدلُّ على صدْقه فى البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفاقاً . والنسيان هنا يعنى الترك ، وإلا فالنسيان الذى يقابله الذكر مُعْفىً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] أى تُنسَى فى النعيم وفى الجنة ، لكنك لا تُنسى فى العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ .. (١٢٧) ﴾ [طه] أى : مثل هذا الجزاء ﴿ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ .. (١٢٧) ﴾ [طه] والإسراف : تجاوز الحدِّ فى الأمر الذى له حَدٌّ معقول ، فالأكْل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدِّ فهو إسراف .

دَخْلك الذى يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه فى حدود ، ثم تدَّخر الباقى لترقى به فى الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أنْ تُرقِّى نفسك فى ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧) ﴾ [الإسراء]

وللإسلام نظرته الواعية فى الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ فى حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين ؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقى ، والأخذ بأسباب الترف ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى : فربُّك عز وجل خلقك ،

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . والقتر والإقتار والتقتير كله بمعنى واحد : هو التضييق الذى هو نقيض الإسراف . [القاموس القويم ٢/١٠٠] .

وخلق لك مُقوِّمات حياتك ، وحدَّد لك الحلال والحرام ، فإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد فى جانب الحلال مما حرمه الله عليك ، فهذا إسراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذى حَدَّه لك ربك ، تجاوزتَ الحدَّ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتى الإسراف من ناحية أخرى : فالشىء فى ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حِلِّه .

فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن الله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شىء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شىء حُرِّم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

إذن : فربّك لا يُضيِّق عليك ، وينهاك أنْ تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أنْ تُحلِّل ما حرَّم عليك لأن ذلك فى صالحك .

وكما يكون الإسراف فى الطعام والشراب وهما من مُقوِّمات استبقاء الحياة ، يكون كذلك فى استبقاء النوع بالزواج والتناسل ، إلى أنْ تقوم الساعة ، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَنْ تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف .

ومن رحمته تعالى أنه يغفر لمنْ أسرف على نفسه شريطةَ أن يكون مؤمناً : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر]